

لوم او تانيب . أما المقربون الجدد من أمثال الكسي باسمونوف وميشيل سالتيكوف وأثناسيوس فيازيمسكي وإيفان شيبوتوڤي فكانوا أفراد حاشية يصفقون للرديلة ويشجعون القسوة والفجور .

في كانون الأول ديسمبر عام ١٥٦٤ قرر القيصر القيام بعمل خارق يمكن من خلاله بشكل ما أن يتنبأ المرؤ بغرابة الفترة الأخيرة من عهده . فقد ترك المدينة ومضى مغامراً في أمكنة مجهولة ليس لها اتجاه محدد تاركاً اختيار طريقه « لإرادة الله » . وفي الساعة الأولى من يوم الثالث من كانون الأول ديسمبر تجمع عدد كبير من الزحافات المكدنة الى أحصنة مع سائقها فوق الثلج في ساحة الكريملين وأقيت حفلة وداعية في كاتدرائية الصعود . وكان البويار الذين حضروا الاحتفال يتطلعون الى بعضهم مشدوهين لانهم لم يكونوا على علم بشيء . وأعطى المتروبوليت أثناسيوس بركاته وهو يجهل هو الآخر نوايا القيصر . وكان العمال مشغولين بتحميل الزحافات بالذهب والفضة والأحجار الكريمة يأتون بها من القصر . واستقر القيصر والقيصرة وطفلاه في زحافتهم . وركب أيضاً السكرتيرون وعدد من الموظفين وانطلقت القافلة بالجميع دون أن تترك وراءها أي عنوان .

وفي اللحظة التي اتخذ القيصر فيها طريقه كان التجار والأمراء قد قبلوا يده ، ولكنهم عندما رأوا حرسه من الفرسان وخيول الجر التي تجري غزاً الخوف قلوبهم ، فهذا السفر الغريب بدا علامة شوم لهم ولوسكو . وقد انقلب هذا الخوف الصغير إلى ذعر كبير عندما تلقوا في مدينتهم أولى الرسائل التي بعث بها القيصر بعد سفره والتي يقول فيها : « بما أنني عاجز عن تحمل الخيانات التي تحيط بي فقد هجرت الدولة وذهبت حيث يقود الله خطاي » .

وليس الأمر أن شعب موسكو خشي عقاب القيصر فإن إيفان لم يكن يتكلم في ذلك . لقد قال ببساطة إنه تعب منهم وإنه يهجرهم كما يهجر زوج متمرّد زوجته وبيته . فالملك الذي تلقى البركات هجرهم « فماذا نفعل الآن